بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين، وعلى صحبه أجمعين، وبعد

فإنّ الحديث عن أسلمة الأدب في عصر المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، وعاشوا ثقافة مزدوجة موزّعة بين الماضي المتمكّن من نفوسهم والأوضاع الجديدة الطارئة عليهم، يحتاج إلى تفعيل آلية النقد المضموني، وقراءة النص من الداخل؛ لإلقاء الضوء على التحوّلات التي أصابت المحتوى الشعري على مستوى الألفاظ والمعاني، ويقترن هذا الموضوع بتداعيات كثيرة تتعلّق بقضايا الاتّباع والإبداع، التقليد والتجديد، الطاعة والمعصية، الخضوع والتمرّد.

والمعروف أنّ الإسلام لم يحرّم الشعر، بل دعا إلى توظيفه وتوجيهه وجهة جديدة في ضوء الدين الإسلامي وقيمه وأخلاقياته. فكان من بين الشعراء، أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيراً، فالقرآن الكريم رفع من شأن الشعر الذي يتبنّى قيم الإسلام ويدعو إليها، ويهاجم الأعداء، ويردّ عليهم. فالشعر إذن "وسيلة أيديولوجية تدافع وتبشّر، أو تنقد وتهاجم" (١). ورُوي عن الرسول (ص) أنّه قال: "إنّما الشعر كلام مؤلّف، فما وافق الحقّ منه فهو حسن، وما لم يوافق الحقّ منه، فلا خير فيه" (٢).

وللوصول إلى شيء يقترب من اليقين اختارت هذه الدراسة الشاعر المخضرم أبا محجن الثقفي الذي ينتمي إلى مدينة الطائف، آخر معاقل الوثنية في الجزيرة العربية أنموذجاً لهؤلاء الشعراء؛ الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، وعاشوا حالة من الصراع بين ثقافتين مختلفتين، وظهر أثر ذلك الصراع جلياً في أشعارهم.

تهدف هذه الدراسة إلى التعرّف على تحوّلات المضمون والبُنية، والوقوف على نقط التطوّر والتجديد التي أصابت الشعر، بعد أنْ لبّى الشعراء نداء الإسلام الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور. واعتمد البحث على المنهج التحليلي الوصفي الذي يتناول الشعر بالتفسير والتحليل والنقد، مع الاستفادة من المنهج النفسي.

ويتكوّن هذا البحث من تمهيد، نتعرّف فيه على السيرة الذاتية للشاعر أبي محجن الثقفي/ موضوع الدراسة، يلي ذلك دراسة لشعره مقسّمة إلى مرحلتين، تتناول المرحلة الأولى شعره الخمري، وما فيه من وصف لها وإصرار على شربها. أمّا المرحلة الثانية: فهي مرحلة التوبة والانعتاق، ودعوة الناس إلى الكفّ عن شربها لمضارها الكثيرة. ثمّ تأتي الخاتمة مجملة خلاصة هذه الدراسة ونتائجها.

المبحث الأول

أبو محجن الثقفي (اسمه ونسبه):

هو أبو محجن بن حَبيب (حُبَيْب أو حُبيِّب) بن عمرو بن عُمير بن قسيّ بن ثقيف، وقيل اسمه مالك، وقيل اسمه أبو محجن، وكنيته أبو عُبيد(٣). وهو صحابي سمع عن النبي (ص)، وروى عنه عدّة أحاديث، وتَرجمت له كتب الصحابة مثل: "الطبقات الكبرى" لابن سعد (- ٢٣٠ هـ) (٤)، و"الاستيعاب في معرفة الأصحاب" لابن عبد البرّ (- ٤٦٣ هـ) (٥) وغيرها. وكان قد حارب المسلمين مع قومه ثقيف أثناء غزو الطائف سنة ٨ هـ، وفي السنة التاسعة للهجرة اعتنق أبو محجن الإسلام مع قبيلته حين أتى وفد ثقيف إلى المدينة المنورة.

وكان أبو محجن الثقفي شاعراً فارساً، كريماً جواداً، وهو معدود في أولي البأس والشدة، وقد ارتبط اسمه بالفتوحات الإسلامية في العراق، وبخاصة في موقعة القادسية سنة ١٦ هـ؛ التي أبلى فيها بلاءً حسناً، وكان أحد الفرسان البُهَم الذين لا يُدْرى من أين يأتي لهم البأس، وكان لا يهجم على الأعاجم من ناحية إلا هزمهم الله، وتعجّب الناس من أمره، فقال بعضهم: "لولا أنّ الملائكة لا تباشر لقلنا إنّه مَلَك" (٦)

وفاته:

توفي أبو محجن الثقفي – كما قيل – سنة ٣٠ هـ بأذربيجان أو بجُرجان، وقد نُسجت حول قبره الأساطير، وذكر أبو الفرج الأصفهاني عن الهيثم بن عدي أنّه قال: "أخبرني من مرّ بقبر أبي محجن في نواحي أذربيجان أو جُرجان : أنّه رأى قبره وقد نبتت عليه ثلاثة أصول كَرْم قد طالت وأثمرت، وأنه توقّف طويلاً متعجباً من تحقيق ما كان يقوله أبو محجن:

إذا متّ فادفني إلى أصل كرمةٍ تُروّي عظامي في الترابِ عروقُها (٧)"

شعره:

أبو محجن شاعر مقلّ، له ديوان شعر صغير، مكوّن من مقطوعات وقصائد قصيرة، أطولها تقع في أحد عشر بيتاً، وهو شاعر مطبوع، بعيد عن التكلّف، محدود الموضوعات، يدور معظمه على وصف الخمر والحروب والحماسة، ومكارم الأخلاق، وعن شعره قال لويس شيخو: "شعر لطيف الوَقع، خالص العاطفة، طَبعي الصورة، وتَرفّع عن ابتذاليات المدح وبذاءات الهجاء..." (٨).

المبحث الثاني

أبو محجن والخمر:

كان أبو محجن من المعاقرين للخمر، المحدودين في شربها، وذُكر اسمه في باب "من حُدّ من الصحابة في الخمر"، إذ ظلّ يشربها على الرغم من تحريم الإسلام لها، وقد أقام عليه الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – الحدّ مراراً، وجلده سبعاً أو ثماني مرات (٩) كي يرتدع ولكن دون جدوى، وكان عمر بن الخطاب شديد الأسف لإدمانه على الخمر، إذ كان معجباً بأبيات قالها أبو محجن يتغنّى فيها بالأخلاق الحميدة التي يتحلّى بها، نختار منها(١٠):

لا تسألي الناسَ عن مالي وكثرته وسائلي القومَ عن ديني وعن خُلقي
قد يُقْتَرُ المرءُ يوماً وهو ذو حسبٍ وقد يثوب سَوامُ العاجزِ الحمـــــقِ

...

عفُّ الإياسةِ عما لستُ نائلَـــه وإنْ ظُلمتُ شديدُ الحقد والحنـــقِ
وأكشفُ المأزِقَ المكروبَ غمّتَــه وأكتمُ السرَ فيه ضربةُ العنـــقِ

...

وكان عمر (رضي الله عنه) لا يذكر ذلك لأحد، إلى أنْ قال يوماً لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه):

من أشعر الناس؟ قال: الذي أحسن الوصف، وأحكم الرصف، وقال الحق. قال: ومن هو؟ قال: أبو محجن في قوله: لا تسألي الناس عن مالي وكثرته... (الأبيات السابق ذكرها).

فقال له عمر: أيّدتني يا أبا الحسن أيّدك الله، ثم أضاف معلّقاً: لقد صدق في كل ما ذكر لولا آفة كانت في دينه من حبّه للخمر (١١).

نعم، لقد كانت في أبي محجن آفة في دينه، فقد أصرّ – على الرغم من إسلامه – على شرب الخمر، وسار في الاتجاه التمرّدي على السلطتين الدينية والسياسية، وكرّس معظم شعره للحديث عن الخمر، ويرى صلاح الدين المنجد أنّ أبا محجن "أوّل رائد في وصف الخمر في الشعر العربي بعد الإسلام، وقد سبق في ذلك الوليد بن يزيد الأموي ومن جاء بعده من أوائل الشعراء العباسيين" (١٢)، وقد أثّرت أشعار أبي محجن القليلة في الشعراء اللاحقين مثل أبي الهندي (– ١٨٠ هـ) القائل (١٣):

اجعلوا إنْ مُتّ يوماً كفَنــي ورقَ الكرمِ و قبري مِعصَــرهْ
وادفنوني وادفنوا الراحَ معي واجعلوا الأقداحَ حولَ المَقبرَهْ

والمتصفّح لديوان أبي محجن الصغير يعثر على مقطوعات كثيرة، مخصّصة فقط للحديث عن الخمر، وعند تحليل هذه الأشعار؛ فإنّ الباحث يستطيع أنْ يقسّمها إلى مجموعتين

تمثّل كل مجموعة مرحلة من مراحل علاقة أبي محجن مع الخمر، وهي علاقة تدخل في قضية الحلال والحرام، والتأرجح بين المعصية والطاعة.

المرحلة الأولى: مرحلة اللهو والمجون والضلال

تعود بدايات هذه المرحلة إلى العصر الجاهلي حين كان أبو محجن يعبّ كؤوس الخمر، ويغازلها في شعره ضمن الإطار المجتمعي المتعارف عليه، وبلغ شغفه بالخمر درجة عالية، ظهرت في وصيّته التي طلب فيها أنْ يُدفن في كروم العنب. كقوله (١٤):

إذا مُتّ فادفني إلى جنبِ كرمةٍ تروّي عظامي في الترابِ عروقُها

ولا تدفنّني في الفلاةِ فإنّـــني أخافُ إذا ما متّ ألا أذوقُـــــها

فهو يرى أنّ الخمر رمز الحياة والنشوة وأنّ الصحراء هي رمز الجدب والتلاشي والفناء، هكذا كان يعتقد أبو محجن أنّ شرب الخمر يستمرّ بعد الموت، وهذا معتقد جاهلي كان شائعاً، وهو ذو علاقة بالحياة بعد الموت، "فقد ارتبط خلود البطل في ذهن الجماعة بممارسة القيم التي كان يرسّخها في حياته، فرفاق الأعشى وندماؤه كانوا يشربون الخمر على قبره، وتدور الكأس، فإذا جاء نصيب الأعشى صبّوا الخمر على قبره" (١٥)، فالشاعر يخاف من الموت لأنّه سيحول بينه وبين الملذّات، وكان يتمنّى أنْ تستمر ممارسة الشهوات بعد الموت، وهذه الأمنية تنطوي على نزعة وجودية إنسانية تتعلّق بالحياة والموت، والخوف والهلع من العدم وعدم الثقة بالمستقبل، وهذه الأمور تعدّ من أساسيات الوجود عند الوجوديين، ولكنّها لا تصل إلى مستوى وجودية طرفة بن العبد الذي كان يسرف في الشراب هرباً من مواجهة الحياة ومشاكلها ونهايتها، كان طرفة يفكّر بالوجود وما وراءه، فالتبس عليه الأمر وتعقّد، وخُيّل إليه أنّ الموت سيُلمّ به لا محالة، وأنّه ليس ثمة وجود وراء هذا الوجود، "عندئذ أيقن بباطل الحياة التي يحياها، ولاجدوى الأماني والمطامع التي يسعى ويشقى لتحقيقها... وطلب الهرب وسعى إلى تخدير وعيه بنفسه، فلم يجد أمامه سوى الخمر (١٦). يقول طرفة (١٧):

ألا أيهذا اللائمي أشهدُ الوغـى وأنْ أحضرَ اللذاتِ هل أنتَ مخلدي؟
فإنْ كنتَ لا تستطيعُ دفعَ منيّـتي فدعني أبادرْها بما ملكت يـــــدي

أمّا أبو محجن الثقفي فإنّ خمرياته تمثّل صورة أخرى، فبدايات حياته تشير إلى أنّ شاعرنا نشأ وشبّ في مدينة الطائف المعروفة بكثرة كرومها وحوانيتها قبل الإسلام، فكانت زراعة العنب تشكّل لقبيلة ثقيف ثروة أساسية، وكان التعرّض لها بالإتلاف وسيلة لكسر اقتصادهم، وتحطيم معنوياتهم وهزيمتهم. وجاء في حصار الطائف أنّه حين قام المسلمون بتقطيع كرومهم كوسيلة للضغط عليهم، توجّه الثقفيون إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يسألونه أنْ يدعها لله وللرحم (١٨).

ولَمّا كانت ثمار العنب تفيض عن حاجة الاستهلاك المحلي قام أهل الطائف بتصديرها أو تصنيعها، وقد عُرفت بتجفيف العنب (الزبيب)، حتى ضُرب بزبيب الطائف المثل. وكذلك كانت صناعة الخمر رائجة عندهم، يدلّ على ذلك كثرة المعاصر وكثرة الحانات، ويُروى أنّ عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) أضرم النار في حاناتها ومعاصرها، وقد سجّل أبو محجن ذلك الموقف بحرقة وألم قائلاً (١٩):

رماها أميرُ المؤمنينَ بحتفِها فخلانُها يبكون حولَ المعاصرِ

إنّ إقبال أبي محجن على شرب الخمر في العصر الجاهلي أمر طبيعي، بل هو أمر استدعته قريحته الشعرية من ناحية، وفروسيته من ناحية أخرى، وذكر بعض النقاد مثل ابن قتيبة دوافع الشعر وبواعثه، التي تحثّ البطيء، وتبعث المتكلّف، "منها الطمع، ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، و منها الغضب..." (٢٠).

وقد شاع وصف الخمر في الشعر الجاهلي، وكان العرب يحرصون عليها، ويفتخرون بشربها، كما يفتخرون ببطولتهم وفروسيتهم بحيث يظهر شرب الخمر وكأنّه فضيلة من الفضائل، ورأوا في شربها مظهراً اجتماعياً ارستقراطياً، وعدوّها جزءاً مكملاً للفروسية؛ لأنّها تبعث فيهم الجرأة، وتنشّط قرائحهم. وكان الشعر عندهم يقوم مقام الآلات الموسيقية عند غيرهم

من الأمم، فيُغيرون منشدين المقاطع الحماسية التي تثير الهمم، ولما كانت حروبهم كثيرة ازدادت عندهم الحاجة إلى شرب الخمر؛ لأنّ الحرب تسفر عن غالب ومغلوب، غالب انتصر وظفر فيعبّ الخمر بهجة ونشوة، ومغلوب هُزم وفُجع بأحبابه، وخسر ماله، فاسودّت الدنيا في وجهه، فيلوذ بالخمر يتناسى همومه وأحزانه (٢١)، ويرى إيليا حاوي: "أنّ الفروسية العربية شبيهة بالفروسية الغربية إذ طالما شهدنا روايات ألكسندر ديماس وسائر القصص البطولي في الأدب الغربي تسرف في ذكر مجون الفرسان وعربدتهم حتى كأنّ الخمر طبع من طباعهم"(٢٢).

إنَّ الربط بين الفروسية وشرب الخمر يقودنا إلى الجذور الأسطورية المرتبطة بشرب الخمر التي تعتقد "أنّ الخمر كانت شراباً مقدّساً للآلهة تَبعث فيهم القوى المتفوّقة الخارقة، وكانت دماء الإله تُشرب في أعياده لاكتساب صفاته المقدّسة، وما تزال الخمر تُشرب في ممارسة دينية تعيش حتى الآن ممثّلة لدم الإله في الأعياد التي تحيي ذكر موته، ومن لا يشربها بهذه الصفة لا يعدّ من المؤمنين" (٢٣).

إنّ شرب الخمر له جذور دينية أوحت لشاربها بأنّه يكتسب صفات الإله، ويستطيع أنْ يقوم بالأفعال التي تقوم بها الآلهة، ويعجز عنها البشر، فالإنسان الجاهلي يشرب الخمر بقناعة عالية، ويرى أنّها ترتقي بالإنسان العادي البسيط إلى مستوى الأشراف، وتحقّق له الصورة المثالية التي يتوق إليها ويتمنّاها في وعيه، كما أنّها تبعث في القلب جرأة نادرة، ويروى أنّ الفُرس كانوا يشربون الخمر قبل أنْ يخوضوا الوقائع، وذكر ابن قتيبة أنّ بعض المسلمين اصطبحوا بالخمر يوم بدر لتزيد حماستهم اشتعالاً (٢٤).

وكان أبو محجن الثقفي ابناً باراً لهذه البيئة، فكان دائم التردّد على الحانات، وتغنّى بشربها صباح مساء (أي بصورة دائمة)، ووصف الكأس ومجالس الشراب، كقوله (٢٥):

أباكرُها عندَ الشروقِ وتـــارةً يعاجلُني بعد العشيِّ غَبوقُها

وللكأسِ والصهباءِ كأسٌ منعّمٌ فمن حقّها ألا تضاعَ حقوقُها

فالشاعر يصرّح بمعاقرته الخمر، وما تُضفي عليه من بهجة وسعادة، فهو يحلّل الشراب "ويرى أنّ ما تطرب له النفس وتفرح به، لا حرج فيه؛ لأنّ الطبيعة أوجدت النشوة لينتشي بها الإنسان، والغناء ليطرب له" (٢٦). ويَذكر في مقطوعة أخرى طقوسه في شرب الخمر، فقد يشربها صِرْفاً، أي: غير ممزوجة بالماء، أمّا إذا كان في جوّ طربي يحتّم عليه اللهو، فإنّه يمزجها بالماء كي لا تنتهي به إلى السكر، يقول (٢٧):

فقد أباكرها ريّا وأشربُهـــــا صرفاً، وأطرب أحياناً فأمتـــــزِجُ
وقد تقومُ على رأسي مغنيـةٌ فيها إذا رَفّعتْ من صوتها غنـجُ

فالخمر التي يشربها ليست خمر تَهتكٍ وسفاهة، بل هي خمر لهو ومتعة ولذّة، وهي لا تشوّه وجهه الجميل اجتماعياً، ولا تحول بينه وبين أداء واجباته، يقول أبو محجن (٢٨):

وعندي على شرب العُقار حفيظةٌ إذا ما نساءُ الحيّ ضاقت حلوقُها
وأمنع جارَ البيـتِ مما يثوبُـــه وأكرم أضيافاً قِراها طروقُهـــــا

وبعد إسلامه ظلّ أبو محجن الثقفي يشرب الخمر منحرفاً عن المسار الديني، وهذا صريح في قوله (٢٩):

إنْ كانت الخمرُ قد عزّتْ وقد مُنعتْ وحالَ من دونها الإسلامُ والحرجُ
فقد أباكـرُها ريّـــــا وأشربُهـــا صِرْفاً وأطربُ أحياناً فأمتـــــزجُ

يظهر مما تقدّم؛ أنّه كان يتعرّض للنقد الشديد لاستمراره في شرب الخمر بعد الإسلام، إلى جانب الحدّ الدي كان يُقام عليه، غير أنّ ذلك لم يصرفه عن شرب الخمر، بل جعله يدافع عن نفسه ويبرّر سلوكياته. فشُرب الخمر هو حريّة شخصية، ولا يحقّ للمجتمع أو للدين أنْ يحول بينه وبينها؛ طالما أنّه لا يؤذي أحداً، وبهذا التفسير تُفهم هذه الازدواجية في المعاني التي وردت في خمرياته، كما تفهم النزعة الوجودية التي تعلي من شأن الفرد، وتدعو إلى احترام رغباته ومشاعره، حتى لو أدّى ذلك إلى استحلال المحرّمات، وتدنيس المقدّسات، فليس لديه ما يردعه، يقول أبو محجن (٣٠):

ألا سقّني يا صاحِ خمراً فإنّنـي بما أنزل الرحمنُ في الخمرِ عالمُ
وجُدْ لي بها صِرْفاً لأزداد مأثماً ففي شربها صِرْفاً تتم المـآثـــمُ
هي النارُ إلا أنني نلتُ لـــذةً وقضَّيتُ أوطاري وإنْ لام لائـــمُ

فالشاعر يتلذّذ بذكر فجوره وتماديه في شرب الخمر، وتحدّيه لتعاليم الدين ورفضه لها، ونراه يستعمل لغة سهلة واضحة تعكس إصراره على شرب هذا المحرّم دينياً (فإنني بما أنزل الرحمن بالخمر عالم)، واجتماعياً (وإن لام لائم)، إنّه يحقّق حاجته من اللذة والمتعة (نلت لذة، وقضيت أوطاري) بحيث يصبح أبو محجن – كما قال أدونيس – "نموذجاً للتحوّل عن النماذج الثابتة التي أقرّها الإسلام، وسار في الاتجاه التمرّدي الذي سنّه امرؤ القيس" (٣١).

فأبو محجن يخالف ما جاء في القرآن الكريم من تحريم نهائي للخمر، وهو على وعي تام بما يفعل، يسعى إلى اللذة القريبة، ولا تهمّه العقوبة الأخروية (النار)، ولا العقوبة الدنيوية ممثّلة بشخصية اللائم، إنّ وجود هذه الشخصية يشير إلى رقابة الجماعة على سلوك الفرد، ويرى د. إبراهيم ملحم "أنّ أبا محجن في مجاهرته بالإثم كان يحاول استعادة دور البطل القديم، في وقت لم يعد فيه لهذا البطل دور وفق المنطق ذاته... بسبب تغيّر دور البطل في حياة الجماعة، وعدم القدرة على تكوين الوجود الحالي بناءً على أنقاض الماضي، فبقيت الأنا منقسمة على ذاتها، غير قادرة على تحقيق الانتعاش الداخلي من خلال إنعاش الذات بالخمر، أو المزاوجة بين الخمر والقيم السامية" (٣٢).

إنّ المقطوعة السابقة تكشف عن حالة من الوعي التام بالإثم، فهو يجهر بالمعصية، وكأنّه يعصي الله ذاته، ويرفض الإذعان والطاعة، مع أنّه يدرك أنّ العصيان سيورثه النار. هذا الموقف من الشاعر المسلم أبي محجن يظهر مثيراً للدهشة والاستغراب، فهو يُظهر تهالكه على الخمر بإرادته، ويستهين بالتحريم الذي دعا إليه القرآن ممّا دفع بعض المستشرقين إلى القول: "أنّه يَسخْر مباشرة من تحريم القرآن للخمر، ويُعلن لنا أنّه لن يُقلع عن شربها البتة... إنّه يسخر

ويتهكّم على (الحدّ) وهو العقاب البدني لمن يشرب الخمر، وجاء تهكمّه في تعابير تدلّ على اللباقة أحياناً، كما تدل على الكفر أحياناً أخرى" (٣٣).

هل صحيح أنّ الشاعر يتهكّم على الحدّ؟ وأنّه مُغرق في الانحلال الخلقي، والتحلّل من القيود الدينية، والتمرّد على السلطة السياسية (ممثّلة في الخليفة أو من يقوم مقامه)؟ أم أنّ هناك شيئاً آخر يمكن أنْ نفسّره بالإدمان؟ إنّ شغفه بالخمر مَلك عليه نفسه، فلم يستطع منها فكاكاً حتى أصبح عاجزاً عن المقاومة، كقوله (٣٤):

وإنّي لذو صبرٍ وقد مات إخوتي ولستُ عن الصهباءِ يوماً بصابرِ

ويروى أنّ عمر بن الخطاب حين استمع إلى شعره هذا قال له: "لقد أبديتَ ما في نفسك، ولأزيدَنّك عقوبة على شرب الخمر" (٣٥).

المبحث الثالث

المرحلة الثانية: مرحلة التوبة والطاعة

لم يستطع أبو محجن الثقفي أنْ يواصل السير ضد التيار، وأنْ يعبث بتعاليم الإسلام بتحليل ما حرّمه عن قصد وسبق إصرار، فقد حدثت تحوّلات في حياته انتهت به إلى ترك الخمر وذمّها، كقوله (٣٦):

ألم ترني ودّعتُ ما كنتُ أشربُ من الخمرِ إذْ رأسي لكَ الخيرُ أشيبُ

سأتركُها للهِ ثمّ أذمُّـــــــها وأهجرُها في بيتِها حيثُ تُشـــــربُ

احتوى هذان البيتان على عدة أفكار واضحة، وهي: هجر الشاعر الخمر ومقاطعة بيوتها، ثم القيام بدور الداعية الذي يذمّ الخمر ويبيّن مساوئها، وأخيراً يجد الشاعر مسوّغاً له في اتخاذه هذا القرار الحاسم في حياته، ونرى أنّ هذا المسوّغ يستند إلى سببين: الأوّل شخصي، وهو كبر السن الذي رمز له بالشيب. والآخر ديني يكشف عن رغبة الشاعر في الامتثال لأوامر الله – سبحانه وتعالى – وتجنّب ما نهى عنه. ويلاحظ الناظر في كلام أبي محجن أنّه قدّم العامل الشخصي على العامل الديني، وأنّه فكّر في التوبة لأنّ نوازع الضعف

بدأت تتسلّل إلى روحه وجسده، "وهذه التوبة المتأخّرة التي تفد عندما يبلغ المرء من العمر أرذله قد تفقد دلالتها النفسية الوجودية، لأنّ النفس تركد آنئذٍ، ويعجز صاحبها عن مواقعة الشهوات"(٣٧).

إنّ تنفيذ فعل التوبة والإقلاع عن شرب الخمر لم يكن بالأمر الهيّن على الشاعر، فهناك عوائق كثيرة تقف في وجهه، بعضها يعود إلى نفسه التي شبّت وشابت على مطارحة الخمر، فخيالاتها السّارة ما زالت تداعب جفونه، وبعضها الآخر يعود إلى الناس الذين قاموا بدور العاذلة التي تهزأ به، وتلومه على الفضيلة وتشعره بأنّ انقطاعه عن شرب الخمر يعني أنّ عهد بطولته قد انتهى، ومن زاوية أخرى كان الناس (العواذل) يشكّكون في مصداقية توبته ويحاولون ثَنيه عنها، وقد عبّرت أشعار أبي محجن عن هذه اللحظات الصعبة التي مرّ بها، وكشف النقاب عن الأساليب الدنيئة التي اتّبعها العواذل لزجره، ودفعه إلى التراجع عن قراره، غير أنّه لم يأبه بهم، وردّ عليهم بعبارة موجزة فيها كلّ شيء، وهي: إنّه ترك الخمر إلى غير رجعة لله تعالى، يقول (٣٨):

وقال ليّ النُدمانُ لما تركتُهـــــا ... أألجدُّ هذا منك أم أنت تلعبُ؟
وقالوا: عجيبٌ تركُكَ اليوم قهوةً ... كأنّي مجنونٌ وجلدي أجـربُ
سأتركُها لله ثمّ أذمُّهـــــــــــا ... وأهجرُها في بيتها حيث تُشربُ

وحاول فريق آخر من الناس إغراءه بمواصلة شربها، حين عدّوا شربها غنيمة لما فيها من السرور، غير أنّ ذات الشاعر الواعية رفضت هذا الإغراء بمنطقية عالية، وعقيدة واضحة مستمدّة من القرآن الكريم. فانبرى يبيّن لهم مساوئ الخمر وما تُلحقه بشاربها من سفاهة وطيش وهيام حتى يصبح أضحوكة للناس، يقول (٣٩):

يقولُ أناسٌ اشربْ الخمرَ إنّهـــا ... إذا القومُ نالوها أصابوا الغنائما
فقلتُ لهم: جهلاً، كذبتم ألم تروا ... أخاها سفيهاً بعد ما كان حالما
وأضحى وأمسى مستخفّاً مهيّمـاً ... وحسبكَ عاراً أنْ ترى المرءَ هائما

يدير الشاعر في هذه المقطوعة مناظرة بينه وبين الجماعة أو بينه وبين نفسه التي تشعره بالعجز عن الالتزام بالتوبة، غير أنّ (أنا) الشاعر تزداد قوّة، وتنفي عن نفسها صفة الضعف حين تستند في دفاعها على الشواهد القرآنية التي لا تُردّ، نحو قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ). البقرة: ٢١٩.

لقد عانى أبو محجن كثيراً في هذه المرحلة، ووقف حائراً ومتردّداً وقتاً غير قصير أمام مُفْتَرقين يجذبانه بقوّة وعنف، فالمفترق الأوّل يصرّ عليه أنْ يبقى في إطار الفارس القديم، العاشق للخمر الشارب لها دون وازع من دين أو ضمير، أما المفترق الثاني فهو الزمن الآني أو الواقعي الذي يعيش فيه، فعهد البطولة قد انتهى، وبدأ الضعف يتسلّل إلى جسده بفعل التحوّل الزمني، إنّ الإحساس بالنهاية غذّى عند الشاعر بقوة النوازع الدينية والعقلية والمجتمعية، فهو يعلم – تمام العلم – أنّ الخمر محرّمة، وأنّ عواقبها ستُحيق به في الدنيا وفي الآخرة، فبدأ الخوف يتسلّل إلى نفسه، مما دفعه إلى مراجعة الذات وتحدّيها بالإقلاع عن معاقرة الخمر، ولم يكن أبو محجن وحده في هذا الصراع، بل كان يعبّر عن واقع معاصريه الذين نزلت عليهم آيات التحريم وحالت بينهم وبين اللذّة، وفي الوقت نفسه أوقعتهم في حيرة وجدل حول فوائد الخمر ومضارها، فالصورة القديمة المستقرّة في نفوسهم ترى الخير كلّه في الخمر، وهذا ما لمسناه في الموقف الدفاعي الذي ظهر في تبرير شربها، وإتلاف المال في سبيلها، أمّا الصورة الحديثة التي أقرّها القرآن الكريم فلا تنفي عن الخمر المنافع، بل ترى أنّ ضررها أكبر بكثير من نفعها، ممّا اقتضى التحريم.

وأخيراً انتصر الحقّ على الباطل، ورأى أبو محجن الأمور على صورتها الحقيقية، وأكّد من جديد أنّه لن يشربها، ولن يسمح لأحد بشربها، هذه النظرة الجديدة هي نظرة إنسانية شمولية تُحرّر الشاعر من نرجسية الأنا، وتُوجّهه نحو تحقيق الخير العام للجماعة المسلمة. يقول أبو محجن (٤٠):

رأيتُ الخمرَ صالحةً وفيهـا مناقبُ تُهلكُ الرجلَ الحليما
فلا واللهِ أشربُها حيـــاتي ولا أُسقي بها أبداً نديمـــا

إنّ توبة أبي محجن ترتبط بحكاية طريفة، قيل إنّها كانت السبب الحاسم الذي يقف وراء هجره الخمر وذمّها، وملخّص الحكاية أنّ أبا محجن كان ضمن الجيش الذي خرج مع سعد بن أبي وقاص لحرب الأعاجم، فكان سعد يُؤتى به شارباً فيتهدّده، فيقول أبو محجن: لستُ تاركها إلّا لله عزّ وجلّ، أما لقولك فلا. قالوا: فأتى به يوم القادسية وقد شرب الخمر، فأمر به إلى القيد، فلمّا اشتدّ القتال في تلك الليلة، طلب أبو محجن من زوج سعد أنْ تفكّ قيوده وتعطيه فرس سعد؛ كي يشارك في المعركة ففعلت، وخاض الحرب ببسالة، ثمّ عاد إلى حبسه، ولمّا علم سعد بخبره، أطلقه قائلاً: "اذهب، أما والله لا أضرب اليوم رجلاً أبلى الله المسلمين على يده ما أبلاهم. فخلّى سبيله". فقال أبو محجن: قد كنت أشربُها إذ كان الحدّ يُقام عليّ، وأطهّر منها، فأما إذا بَهرجتني (٤١)، فلا والله لا أشربها أبداً" (٤٢).

إنّ هذه الحكاية – إنْ صحّتْ – متصلّة بنفسية أبي محجن المتمرّدة، التي تأبى الخضوع والانصياع، وتلقّي الأوامر من الآخر/ الخارج، فهو سيّد نفسه ولا يأمره أحد حتى لو أوجعوه ضرباً؛ لأنّه يرى في ذلك انتقاصاً من رجولته وكرامته، وشكلاً من الهيمنة، والتسلّط عليه، أمّا حين رُفع عنه الحدّ فقد ثاب إلى رشده وتركها بكلّ أريحية، وعليه فهو لم يمتنع عن شرب الخمر لإقامة الحدّ عليه بل تركها لله الغفور الرحيم. يقول أبو محجن (٤٣):

أتوبُ إلى الله الرحيـــــــــمِ فإنّه غفورٌ لذنبِ المرءِ ما لم يعـــاودِ
ولستُ إلى الصهباءِ ما عشتُ عائداً ولا تابعاً قولَ السفيهِ المعانـــــدِ
وكيفَ وقدْ أعطيتُ ربّي مواثقـــــاً أعودُ لها، واللهُ ذو العرشِ شاهدي

النتائج:

في نهاية المطاف؛ فإنه يمكن تلخيص نتائج هذا البحث فيما يلي:

- إنّ تجربة أبي محجن الخمرية تجربة متكاملة، لها بداية ولها نهاية، وبدايتها طبيعية إذ ليس من السهل أنْ يتحوّل الناس جميعاً عن حياتهم السابقة في فترة زمنية قصيرة، لا سيما أولئك الذين رتّبوا حياتهم على نسق معيّن ينسجم مع النسق المثالي للجذور التي نبتوا عليها، فظلّ أبو محجن – كما ظلّ غيره – يشرب الخمر، ويَنظْمُ فيها الشعر، ثمّ هداه الله، وعاد إلى الصراط المستقيم، يسأل المولى العفو والمغفرة، ومع ذلك لم ينسَ له الناس وصيّته بأنْ يُدفنَ بين أشجار الكرمة، إذ قال (٤٤):

إذا متُّ فادفنّي إلى أصلِ كرمةٍ تروّي عظامي في التراب عروقُها

- إنّ أشعار أبي محجن الثقفي جاءت مرآة حقيقية لحياته المتأرجحة بين شغفه بالخمر وتعلّقه بها، ثم تَحوّله الى هجرها وذمّها، وما ترتّب على ذلك من حِراك بين القاع والقمة، وبين المعصية والطاعة، دون أنْ يتعرّض في خمرياته لوصف مجالس اللهو والشراب وما يرافقها من رقص وغناء.
- أثبتت هذه الدراسة بالشواهد الشعرية الموثّقة عدم صحة ما استقرّ في أذهان بعض الدارسين؛ من أنّ اتجاهات الشعر العربي في عصر المخضرمين كانت امتداداً لتلك التي كانت له في العصر الجاهلي، وكأنّ القوم لم يسلموا، وكأنّ الدين الحنيف الذي أحدث انقلاباً جذرياً في حياتهم لم يترك أي أثر في شعرهم. فجاء شعر أبي محجن وثيقة حيّة تؤكد أثر الإسلام في نفوسهم، وفي أشعارهم، حتى لو كان هذا الأثر قليلاً.

والحمد لله من قبل ومن بعد.

الهوامش:

١) الثابت والمتحوّل، أدونيس: ج١/ ١٤٧.

٢) العمدة، ابن رشيق القيرواني: ج ١/ ٢٧.

٣) الإنباه على قبائل الرواه، ابن عبد البرّ: ج٤/ ١٧٤٦.

٤) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ج٥/ ٥١٥.

٥) يُنظر: سيرة حياته والأسماء التي أطلقت عليه: جمهرة النسب، ابن الكلبي: ج١/ ٢٧٧. طبقات فحول الشعراء، ابن سلّام الجُمحي: ج١/٢٥٩. الشعر والشعراء، ابن قتيبة: ٢٥٤. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ج١٩/١.

٦) تاريخ الرسل والملوك، الطبري: ج٣/ ٥٦ – ٥٧.

٧) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ج١٩/ ١٣.

٨) المجاني الحديثة، لويس شيخو: ج٢/ ٣٣٩.

٩) الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني: ج٤/ ١٧٥.

١٠) ديوان أبي محجن الثقفي، أبو محجن الثقفي: ١٥ – ٢٢.
يثوب: يكثر. السوام: المال الراعي. العاجز: الضعيف.

١١) المصدر نفسه: ٢٢.

١٢) المصدر نفسه: المقدمة، ٦.

١٣) هو غالب بن عبد القدوس، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، اشتهر بخمرياته، وكان لا يخرج من حانة إلا يدخل أخرى. الأغاني: ج ٢٠/ ١٩٧.

١٤) ديوان أبي محجن الثقفي: ١٥. في البيتين إقواء، والإقواء من عيوب القافية، وهو اختلاف الإعراب في القوافي، وذلك أنْ تكون قافية مرفوعة وأخرى منصوبة. وذكر الفرّاء (معاني القرآن: ج١/ ١٤٦): أنّ الخوف في هذا الموضع كالظنّ؛ لذلك رفع (أذوقها)، كما رفعوا (وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ) المائدة: ٧١.

١٥) بطولة الشاعر العربي القديم: إبراهيم ملحم: ١١٧.

١٦) فن الشعر الخمري وتطوّره عند العرب، إيليا حاوي: ٦٨.

١٧) المعلقات العشر، الشنقيطي: ٨٢.

١٨) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ج ٢/ ١٩٥. الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج ١٨/٢.

١٩) ديوان أبي محجن الثقفي ٥٣.

٢٠) الشعر والشعراء، ابن قتيبة: ٢٢.

٢١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي: ١٣.

٢٢) إيليا حاوي، فن الشعر الخمري: ١٣.

٢٣) الصورة في الشعر العربي، علي البطل: ٧٥.

٢٤) الأشربة، ابن قتيبة: ٧٣.
٢٥) ديوان أبي محجن الثقفي: ٤٩.
٢٦) إيليا حاوي، فن الشعر الخمري: ٩٠.
٢٧) ديوان أبي محجن الثقفي: ٤١.
٢٨) المصدر نفسه: ٤٩.
٢٩) المصدر نفسه: ٤١.
٣٠) المصدر نفسه: ٣٦ – ٣٧.
٣١) الثابت والمتحوّل، أدونيس: ج ١/ ٢٠٩.
٣٢) بطولة الشاعر العربي القديم، إبراهيم ملحم: ١٤٣.
٣٣) دائرة المعارف الإسلامية، رودوكناكس (Rhodokanakis): ج ١/ ٣٩٧ – ٣٩٩.
٣٤) ديوان أبي محجن الثقفي: ٥٣.
٣٥) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ج ١٩/ ١٢.
٣٦) ديوان أبي محجن الثقفي: ٤٠.
٣٧) فن الشعر الخمري، إيليا حاوي: ص ٢٩٣.
٣٨) ديوان أبي محجن الثقفي، ٤٠.
٣٩) المصدر نفسه: ٣٤.
٤٠) المصدر نفسه: ٥٣.
٤١) بهرجتني: أسقطت الحدّ عنّي.
٤٢) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ج ١٩/ ٥–٨.
٤٣) ديوان أبي محجن الثقفي: ٣٥.
٤٤) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ج١٩/ ١٣.

Abstract

This paper examines the impact of Islam on the poetry of veterans – who lived through the period of Al-Jahiliyyah (the state of Arabs before Islam: the ignorance of Islam and Allah) and the period of Islam- from the perspective of fixed and variable, discussing in particular the poetry that talked about topics forbidden by Islam such as the wine poetry. The description of wine was commonly found in the pre-Islamic poetry; and Arabs were proud of drinking wine the same way they were proud of their championship and horsemanship. Drinking wine for them was associated with religious roots. Arabs before Islam believed that drinking wine gives its drinkers the qualities of God, enabling them therefore to do what God does, in which normal human beings are not capable of. When Islam came, a number of poets kept on drinking wine –although it became forbidden – which they talked about in their poetry, and on top of those poets was Abu-Mehjan Al-Thaqafi who is a veteran poet and one of the few Knights known in Al-Jahiliyyah period (the ignorance of Islam). The reader of Abu-Mehjan's poetry will notice that his relationship with the wine appeared in his poems in two contradictory stages. In the first stage he appears to be a rebellion against religious authority, bragging about drinking wine and committing sins. However, this phase in his life did not last forever as Abu-Mehjan appeared in the second and final stage –repentance stage- obeying all the orders of Allah as stated in the religion, while being fully aware of these orders. Abu-Mehjan, during the second stage, wrote poems in dispraise of wine talking about its disadvantages, and asking people to stop drinking, inspired by the Quran and Islam orders.

ردود الإمام الكَرَجي على بعض الفِرَق الإسلاميةِ في كتابهِ نُكتِ القرآن

ملخص البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

تناولت في بحثي هذا حياة المؤلف من حيث اسمه وكنيته ولقبه ومولده ونشأته وشيوخه وتلاميذه ومؤلفاته ووفاته، ثم تناولت الفرقة الأولى :المعتزلة والتعريف بهم وبيان عقائدهم واصولهم الخمسة المتمثلة بالتوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ورد القصاب على كل اصل من اصولهم، ثم الفرقة الثانية الجهمية :والتعريف بهم وبيان عقائدهم وردود الكرجي عليهم في مسألة خلق القران وفي أفعال العباد وفانكار رؤية الله، ثم الفرقة الثالثة المرجئة:من حيث التعريف بهم وبيان عقائدهم ورده عليهم في تضمن الايمان للعمل وزيادته ونقصانه وفي الاستثناء للإيمان ، ثم تناولت الفرقة الرابعة: الخوارج والتعريف بهم وتسمياتهم (الخوارج ،والمارقة ، والحرورية والشراة والمحكمة والنواصب واهل النهروان) وردود الكرجي عليهم .